الأزهر

صور من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه

تأليف

الأستاذ الدكتور / محمود محمد عمارة

هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر شعبان ١٤٢٣ هـ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صور من حياة الرسول ﷺ وصحبه

(دروس من غزوة تبوك)

تأليف
الأستاذ الدكتور
محمود محمد عمارة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد:

«تبوك» مكان معروف. فى نصف طريق المدينة إلى دمشق. وهو إلى الشام أقرب... وهى الآن ثكنة تابعة لإمارة المدينة المنورة على بعد ٧٠٠ كم منها.

وسميت بهذا الاسم من البَوْك وهو: الحفر.

فقد جاءها النبى ﷺ وهم يبوكون - أى يحفرون مكان مائها بِقِدْح - سهم - فقال لمن سبق إلى حفرها: «مازلتم تبوكانها» فسميت حينئذ «تبوك» (١).

وفى المصباح المنير:

(باكت الناقة بوكا: سمُنت (٢). فهى بائك. بغير هاء. وبهذا المضارع سميت غزوة «تبوك» لأن النبى ﷺ غزاها فى شهر رجب سنة تسع. فصالح أهلها على الجزيه من غير قتال.

فكانت خالية عن البُؤْس. فأشبهت الناقة التى ليس بها هزال.

ثم سميت البقعة «تبوك» وهو موضع من بادية الشام. قريب من مَدْين. الذى بعث الله إلى أهلها شعيبا.

---

(١) فتح البارى ج ١١/٨

(٢) من باب تعب وقرب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسـباب الغـزوة

بعد فتح مكة ظهر الإسلام على الدين كله. وبدأ المسلمون يتحركون بطلاقة لنشر الدعوة الإسلامية.. وعندئذ بدأت مخاوف الرومان تزداد.

فلما كانت غزوة «مؤتة» والتى تألقت فيها العبقرية العسكرية الإسلامية - فى شخص خالد - رضى الله عنه - تنامت مشاعر القلق فى صدور الرومان.. الأمر الذى حملهم على التخطيط لهدم الدعوة. قبل أن يطوقهم مدها الزاحف. ولقد سول لأعداء الإسلام غرورهم بادىء الأمر (أن الإسلام سراج يلتهب. وسرعان ما ينطفىء. أو سحابة صيف عن قريب تنقشع).

وضاعف من هذا الغرور انتصار هرقل على إيران.. وفى نشوة هذا الانتصار اتخذ الرومان قرار الحرب.

الكنيسة تبارك الغزو:

وقف رجال الكنيسة من وراء الحملة العسكرية يشدون من أزرها. ذلك بأن الكنيسة (لا تطيق أن يعيش بجانبها رأى يخالف فى الفروع التافهة فكيف تسمح بالبقاء لدين ينكر سلطة رجالها؟ لأنه لا يرى بين العباد وربهم وسائط وينكر عقيدة الفداء التى ترتكز عليها. لأنه يبنى الجزاء على عمل الإنسان وحده.

فليس للإنسان إلا ما سعى. ولا تزر وازرة وزر أخرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم هو ينكر مبدأ الشركة فى الألوهية. فليس للعالم إلا رب واحد يخضع له عيسى وأمه.

لذلك.. رأى الروم أن يعيدوا الكَرّة. فيضربوا الإسلام فى شمالى الجزيرة ضربة ترده من حيث جاء. وتوصد عليه أبواب الحدود. فلا يستطيع التسرب منها. وتَضْمن بعدئذ الانفراد بالضمير البشرى. حتى إذا قرعت أجراسَها لم يشب رنينها صدى المؤذن يهتف بتكبير الله وتوحيده. ويدعو للصلاة والفلاح) (١).

هرقل يستعد:

على هذا النحو تلاقت وجهات النظر الدينية والعسكرية. وشرع الروم فعلاً يستعدون للمعركة بما يكافئها من تدبير على مستوى شأنها الخطير:

وقف هرقل يجيش الجيوش على نحو يستلفت النظر:

أعطى القيادة لعظيم من عظماء الروم. وأمر الناس بالتأهب لمعركة فاصلة. وفى سبيل التمكين لهذا الأمر فى النفوس.. أعطى الجنود رزق سنة حتى يتفرغوا من أعمالهم. ويستعدوا لحرب ينبغى أن تكون شغلهم الشاغل.

ثم جذب إليه قبائل «لخم» و«جذام» من متنصرة العرب. فى جيش بلغ أربعين ألف مقاتل.

---

(١) محمد الغزالى فقه السيرة/٤٣٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإعلام المعادى يمهد للغزو العسكرى:

تحرك الإعلام المعادى لخدمة أهداف الغزو العسكرى.

وتولى كبر هذا الإعلام قوى متعددة. تؤكد كيف كان الكفر ملة واحدة ومادام الإسلام هو المستهدف بالعدوان. فإن أعداءه مستعدون للتحالف حتى مع الشيطان لكسر شوكته.

وهذا ما حدث عندما انبعث الأعداء فى تحالف يتنادى بالويل والثبور ويضم تحت لوائه:

١- نصارى الحدود.

٢- واليهود.

٣- والمنافقين.

أما عن نصارى الحدود:

فقد كان خروجهم لقتال المسلمين فى حد ذاته دعاية للروم. من شأنها أن تلقى الوهن فى قلوب العرب المسلمين.. أو هكذا أراد الأعداء.

وإذا كانوا يقولون: لا يَهزّ الشجرة إلا فرع منها.. فقد هز خروج نصارى الحدود الشجرة إلى حد ما. من حيث كانوا صنيعة أعدائنا، الراغبين فى هزيمتنا عن طريق عناصر منا يتكلمون لغتنا. لتكون الضربة موجعة مؤثرة.

دور اليهود:

تحمَّل اليهود مسئولية التخطيط لهذه الحرب النفسية الغادرة: فقد اتخذ بعض اليهود من دُورهم أوكاراً لتصدير الشائعات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والأخبار الكاذبة. وبلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من المنافقين يجتمعون فى بيت «سويلم» اليهودى. يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك.

فبعث إليهم «طلحة بن عبيد الله» فى نفر من أصحابه. وأمره أن يحرق عليهم بيت «سويلم».

ففعل طلحة. لكنهم فروا هاربين. قبل أن يصل إليهم.

وإنك لتحس بعنف الرد النبوى لردع اليهود. ولكن كان لهذا العنف ما يسوغه.

١- فقد كان الموقف عصيباً. وكان للكلمة أثرها فى إنهاء الوجود الإسلامى كله.. فكان لابد من الرد الفورى القاسى. لأن المسألة حينئذ مسألة حياة أو موت... ولو أن المؤامرة جاءت من غير اليهود.. كان لها ما يسوغها.

لكن مجيئها من اليهود بالذات يشكل خطراً على جبهة التوحيد.. حين يتحالف أهل الكتاب مع الوثنية لضرب الإسلام. وكان الظن أن يسكتوا على الأقل وأن يختاروا موقف الحياد.. ولكنهم لم يفعلوا.. ولن يفعلوا.

٢- بدأت الفلول المهزومة من المشركين ترفع رأسها من جديد. لما رأت القوى العدوانية تتنادى بالثأر.

٣- كانت للمنافقين اتصالاتهم السرية بملك الروم. وعن طريق أبى عامر الفاسق. وإذن فقد كان الأمر بالإحراق هو الرد المناسب على تحالف صمم على أن يستأثر بالحياة وحده..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دون أناس هم الجديرون بالحياة!.
على أن الإحراق لم يتم فعلاً.. وربما أريد به الإعلان عما يليق بهم. حتى لا يفكر غادر بعد اليوم أن يُجرى من قلبه نهراً مسموماً. تجف به أعواد الحق.

المنافقون يشعلون النار:

للنفاق خطره على الحق وأهله.
وتصور كيف ذكر الحق - تعالى - فى سورة البقرة - بضع آيات فى شأن المؤمنين والكافرين. وفيما يتعلق بالمنافقين.. فقد تحدث عنهم فى ثلاث عشرة آية حديثا يغوص فى أعماق نفوس معقدة. حاقدة.. كأنما قدت من ظلمة الليل البهيم.
وصدق الله - تعالى - حيث يقول:

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾(١).

ملامح الإعلام المنافق:

جاء الإعلام المنافق متلوناً كالحرباء.. يَعكس الطبيعة الملتوية التى صدر عنها:

---

(١) المنافقون: (٢، ٣).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حرب التخذيل:

ومن صور هذا التخذيل ما روى أنه كان رهط المنافقين يشيرون إلى رسول الله ﷺ، وهو منطلق إلى تبوك» فيقول بعضهم لبعض: أتحسبون أن جلاد بنى الأصفر - الروم - كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنا بكم مقرنين غداً بالحبال)(١).

التشكيك فى ثقة القائد بجنده:

استهدفت الحرب النفسية توهين الثقة الرابطة بين القائد وجنده المخلصين. فقد خلّف الرسول صلى الله عليه وسلم «عليا» - رضى الله عنه - على أهله. وأمره بالإقامة بينهم.

فأرجف المنافقون - أى أشاعوا - قائلين: ما خلفه إلا استثقالا له، وتَخَفُّفاً منه.

فلما قالوا ذلك. أخذ «على» سيفه. ثم خرج حتى لحق برسول الله ﷺ. فأخبره بما قالوا.. فقال:

«كذبوا. ولكنى خلفتك لما تركت ورائى. فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك. أفلا ترضى ياعلى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى. إلا أنه لا نبى بعدى»

فرجع «على» ومضى رسول الله فى سفره (٢).

---

(١) ابن هشام ج ٢/٥٢٤.

(٢) البداية والنهاية ج ٥/٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقفة تأمل:

١- وإنك لتحس مدى حرص أعدائنا على أن يكون لهم جهاز دعاية مدرب قادر على التشويش.. وطبق خطة مدروسة.. تختار من المواقف ما يصلح أساساً لهذا التشويش. أى أن الجهاز لا يطلق الشائعة عبثاً وكيفما اتفق.. لكنها تركز على نقاط تحتمل التشكيك.

فَعَلَىّ قائد عسكرى محنك.. ومع ذلك خلفه الرسول من ورائه.. لابد أن هناك سراً.. ثم تنداح دائرة الشك.. إلا أن تداركها يقظة المسلمين.

٢- قد تؤثر دعاية القوم فى لحظة ما.. حتى على خاصة الأمة.. فقد تأثر على - رضى الله عنه - برغم اقتناعه الجازم بسلامة قرار الرسول.. وها هو ذا ينطلق لاحقاً برسول الله فى محاولة لتصحيح الموقف.

٣- فنّد الرسول ﷺ مزاعم القوم. مؤكداً ثقته بعلى - رضى الله عنه - فكان رداً فورياً قبل أن تعشش الأوهام فى صدور المؤمنين. ذلك بأن موقع على فى الجبهة الداخلية لا يغنى فيه سواه.

٤- وإذن فلابد أن يكون للأمة الإسلامية جهاز إعلامى إسلامى قادر على التصدى لكيد الأعداء وإبطال مفعوله قبل أن يستشرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التشكيك فى الرسالة:

ضلت ناقة لرسول الله ﷺ. فخرج أصحابه فى طلبها. فقال أحد المنافقين أليس يزعم محمد أنه نبى يحدثكم عن خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته؟!

فقال الرسول لأصحابه:

«إن رجلاً فيكم يقول: إن محمداً هذا يخبركم أنه نبى وهو يزعم أنه يحدثكم بخبر السماء. ولا يدرى أين ناقته. والله إنى ما أعلم إلا ما علمنى الله. وقد دلنى الله عليها. وهى فى الوادى من شعب كذا. وقد حَبَستها شجرة بزمامها. فانطلقوا حتى تأتوا بها» فانطلقوا. فجاءوا بها(١).

وأنت تلاحظ ما يلى:

١- لا يكتفى أعداء الإسلام بالقذائف الغادرة يوجهونها للجيش الإسلامى من الخارج.. ولكنهم يدسُّون بعضهم داخل الصف الإسلامى. ليضرب من الداخل.. وفى الوقت المناسب. فها هم أولاء منافقون ينخرطون فى سلك الجيش خفية.. حتى إذا اطمأن المسلمون إليهم. نفَثوا سمومهم.

٢- كان فى استطاعته ﷺ - وقد تحداه المنافقون - أن يرد عليهم لمَّا جاءه الوحى بمكان الناقة بحديث يُشعر أنه يعلم

---

(١) البداية والنهاية ٥/٩

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الغيب.. فى محاولة للظهور فى هالة من القداسة يُحرِج بها مخالفيه.. ولكنه ﷺ لم يفعل مجدداً إقراره بعبوديته لله تعالى.

فهو يقسم بالله أنّ كل ما يُخبِر به إنما هو مما علَمه الله - تعالى. وهو يعلم مكان الناقة. لكن الله - سبحانه - هو الذى أعلمه بمكانها ولم يحب أن يحمد بما لم يفعل واضعا فضيلة الصدق أساساً للرد الإسلامى، وفى الصدق منجاة.

وكم من أناس يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب، ومن هذا العذاب: ظهور الحقيقة مستقبلاً شاهدة بكذبهم فيما زعموه من قبل.

لعبة التمويه:

كان لعبد الله بن أبَىً دوره البارز فى التمويه والتشويش على رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقد عسكر فى ضاحية المدينة مع مجموعة من أتباعه.

فلما سار رسول الله ﷺ. تخلف ابن أبىّ بكل من معه. كما فعل فى غزوة أحد. فهو يخرج بأتباعه. ليُثبت عملياً أنه مستعد للقتال فعلاً وها هو ذا مع أتباعه جاهزون.

ثم يقرر الرجوع. للإيهام أنه دَرَس الموقف فوجد أن المشاركة فى المعركة صفقة خاسرة.. مستهدفا كسر الروح المعنوية لدى المؤمنين.. وهيهات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استغلال الشعارات الدينية:

رفع المنافقون شعار الدين. ثم مارسوا تحته كل ما يريدون من خطط عدوانية: بنوا «مسجد الضرار» ورغبوا إلى الرسول ﷺ أن يصلى بهم فيه. تقنيناً له وتشريعاً.محاولين بالشعارات الزائفة إخفاء رغبتهم الحقيقية فى الإفساد فقالوا:

(بنيناه لذى العلة. والحاجة. والليلة المطرة).

ولكن الرسول ﷺ اعتذر.. ونزلت آية القرآن الكريم تفضح نواياهم محذرة الأجيال المسلمة من حِيل الأعداء الذين يتاجرون بآلام الشعب وآماله فيرفعون شعار الدين تمويهاً.. وشعار الإصلاح الاجتماعى تغريراً.. حتى يمارسوا من خلف الستار أبشع صور الكيد.

أنباء الاستعداد تبلغ المؤمنين:

ذكر ابن سعد وغيره قالوا:

بلغ المسلمين من «الأنباط» الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعاً.. وأجلبت معهم «لخم» و«جذام» وغيرهم من متنصرة العرب وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء!.. فندب النبى صلى الله عليه وسلم الناس إلى الخروج. وأعلمهم بجهة غزوهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموقف على الجبهة الإسلامية:

كان الموقف على الجبهة الإسلامية بالغ الصعوبة، والتى بسببها سميت الغزوة «غزوة العسرة».

١- كان الجو شديد الحرارة.

٢- امتدت الظلال. وطابت الثمار مما يحمل الإنسان على الإخلاد إلى الأرض. بين الأهل والولد.

٣- كان السفر بعيداً. إلى جانب كونه شاقاً. من حيث إن الجيش سيعبر مفازاً.. فلا ماء.. ولا ظل. ولا أماكن للإيواء عبر الطريق الطويل.

٤- لم تكن وسائل النقل كافية لاستيعاب المجاهدين.

٥- لم تكن أسماء الجنود مدونة حينئذ. بما يشجع على التخلف. لأن المتخلف لن ينكشف أمره. إلا أن يفضحه الوحى.

٦- يضاف إلى ذلك شراسة العدو، وإصراره على استئصال شأفة المسلمين بما يملك من عدة وعدد.

٧- كان انضمام بعض القبائل العربية والنصرانية إلى جيش الروم نقطة ضعف بقدر ما كان فى يد الرومان ورقة رابحة يلعبون بها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من ملامح العسرة
بأقلام الكاتبين

حين يسلمنا زمام المقال إلى غزوة «تبوك» يتطلب المجال المزيد من الإفصاح عن عظمة ونزاهة هؤلاء الرجال.

فقد وصف القرآن (وقت) هذه الغزوة بـ «ساعة العسرة»، والمقصود جميع أوقات هذه الغزوة، حيث اجتمع عليهم عسرة الظهر، وعسرة الزاد، وعسرة الماء!!.

وكانت فى رجب من السنة التاسعة للهجرة.. حيث تحرك أكبر جيش إسلامى مقاتل مع رسول الله ﷺ، عدته ثلاثون ألف مقاتل، لم يستكملوا ما يلزمهم من الزاد والعتاد، وكان البعير الواحد يتعاقب عليه ما يقرب من ثمانية عشر رجلاً، وربما أكلوا أوراق الأشجار حتى تورمت شفاههم، وربما اضطروا إلى ذبح البعير ليشربوا ما فى كرشه من الماء.

وذكر القرطبى عن الحسن: (كان زادهم التمر المسوس، والشعير المتغير، والإهالة المنتنة «أى الشحم الردىء» وكان النفر يخرجون ما معهم من التمرات بينهم، فإذا بلغ الجوع من أحدهم. أخذ التمرات فلاكها حتى يجد طعمها، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى تأتى على آخرهم فلا يبقى من التمرة إلا النواة!.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فمضوا مع النبى ﷺ على صدقهم ويقينهم - رضى الله عنهم! (١).

فى هذه الظروف المناخية الصعبة، ووسط هذه الأحوال الاجتماعية المضطربة، وخلال هذه الأهوال الاقتصادية المضة.. يتقدم إلى رسول الله ﷺ سبعة إخوة، كلهم من أصحاب النبى الأكارم، وليس فى الصحابة سبعة إخوة غيرهم.. وهم بنو مقرن: «عبدالله، وعبدالرحمن، وعقيل، ومعقل، والنعمان، وسويد، وسنان» يطلبون من الرسول المصطفى أن يحملهم معه فى الغزو، وحين لم يجد ما يحملهم عليهم. انخرطوا فى بكاء حار فسموا «بالبكائين».. وفى هؤلاء البكائين نزل قول الله - عز وجل:

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾(٢).

(١) القرطبى - الجامع لأحكام القرآن ٢٧٦/٨.
(٢) التوبة (٩١، ٩٢)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يحدث هذا من الصحابة الأبرار، وهم قد علموا أن من عجز من مؤونة القتال فقد سقط عنه القتال، ومع ذلك يتطوعون بأنفسهم ليرفعوا لواء الإسلام عالياً.

وقد شملت هذه الحالة كبارهم وصغارهم، أقوياءهم وضعفاءهم، أصحاءهم وذوى العاهات منهم، ومع أن الآية الشريفة أسقطت التكليف عن أصحاب الأعذار، إلا أن عزائم القوم ورغبتهم الخالصة فى الجهاد جعلتهم يرون الجهاد طريقهم المرسوم إلى جنات عرضها كعرض السماء والأرض.

فها هو ذا: (ابن أم مكتوم). وهو أعمى. يخرج إلى (أحد) ويطلب أن يُعطى اللواء، ويلح فى ذلك.

وها هو ذا (عمرو بن الجموح). وهو أعرج وكان من نقباء الأنصار. يقول له الرسول الكريم (إن الله قد عذرك) فيقول: (والله لأحفرن بعرجتى هذه فى الجنة!!) (١)

ويقول عبدالله بن مسعود: (ولقد كان الرجل يؤتى به، يُهادى بين الرجلين حتى يقام فى الصف!!) أى يمشى بين رجلين معتمداً عليهما من شدة ضعفه وهزاله! حتى يجد مكانه فى الصفوف فيشتد عزمه على الجهاد!.

إنها نماذج باهرة.. تتقطع أعناق الرجال دون بلوغ ما بلغته من كرامة الجهاد وروعة الاستشهاد، وما يدنس صحفهم

---

(١) القرطبى، الجامع لأحكام القران (٨/٢٢٦).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البيضاء بوصمة المغنم إلا حاقد خبيث، أو شرير خسيس.. يقيس أنواع السلوك بمقياس المادة، ولا يتصور نموذجاً كنماذج الصحابة.. لأنها تعطيه صوراً فريدة لا مثيل لها فى عالم اليوم (١).

النفير العام:

ووسط هذه الغيوم. أعلن ﷺ النفير العام أو حالة الطوارىء القصوى: وقد أراد صلى الله عليه وسلم أن يلقن الأعداء درساً لا ينسى.. وليعلموا أن الإسلام جاء.. ليبقى.. فكانت هذه التعبئة استجابة لقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

ونبادر فنقول: إن الغلظة هنا ليست قاعدة.. ولكنها خاصة بالأعداء المجاورين المناوئين.. والذين يشكلون عقبه فى طريق الدعوة التى لابد لها من الانطلاق.. إنها إذن الضربة المؤثرة التى تقصم ظهر عدو يحاصر الدعوة. حتى يعلم أن المؤمنين بالحق أقوى.. وحتى يرُهب القبائل العربية الدائرة فى فلك

---

(١) مجلة أخبار العالم الإسلامى.
(٢) التوبة (١٢٣)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الروم. فلعلها تفيق من غفوتها.. وربما كانت صحوتها سبيلاً إلى أن تأخذ موقعها إلى جانب المسلمين. أو على الأقل تلتزم بالحياد.

التصريح بجهة الغزو:

كان من شأنه ﷺ إذا عزم على غزوة ورى بغيرها حتى لا ينكشف سرها. ومن ثم يبقى الأعداء فى غفلتهم حتى يبهتهم: فلا يستطيعون عن الهزيمة حولا إلا فى تبوك فقد أعلن أنهم ذاهبون إلى تبوك حتى يشعر المسلمون بخطورة الموقف. فيضاعفوا استعدادهم. مجنِّدين كل طاقاتهم النفسية والمادية. وربما لو علم الأعداء بتحرك المسلمين لعلهم أن يراجعوا أنفسهم. فلا يكون قتال.. ويكفى الله المؤمنين القتال.

الرسول يحرض المؤمنين:

قال ابن إسحاق (١):

ثم إن رسول الله ﷺ جد فى سفره. وأمر الناس بالجهاز والانكماش (٢).

وكان التركيز على الأغنياء القادرين على تمويل الجيش. والنفقة عليه.. والحُملان فى سبيل الله - تعالى.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

(٢) فى القاموس: كمشه أعجله وتكمش أسره. كانكمش.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تنافس الصحابة:

كانت الغزوة امتحاناً عسيراً. إلا أن الصحابة - رضوان الله تعالى - عليهم نجحوا فيه نجاحاً منقطع النظير. حيث تنافسوا فى البذل.. بذل النفس وبذل المال ومن صور هذا العطاء:

١- حمل رجال من أهل الغنى. واحتسبوا.

٢- وأنفق عثمان - رضى الله عنه - نفقة عظيمة. لم ينفق مثلها أحد.(١)

ويروى الأحنف بن قيس فى ذلك:

سمعت عثمان بن عفان يقول لسعد بن أبى وقاص وعلىّ والزبير، وطلحة: أنشدكم الله. هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال:

«من جهز جيش العسرة. غفر الله له»، قالوا: اللهم نعم (٢).

وقد جهزهم - رضى الله عنه - حتى ما يفقدون خطاماً ولا عقالاً.

إن عثمان - رضى الله - عنه يسأل. وبإلحاح (أنشدكم الله) عن صحة ما نسب إليه ﷺ تنويهاً بمن يجهز جيش العسرة.. وما كاد يسمع شهادة كبار الصحابة حتى أسرع بالبذل. فزود الجيش بكل ما يحتاج إليه حتى خطام الناقة!.

---

(١) راجع البداية ج ٥/٥٤.

(٢) رواه النسائى من حديث حصين (عن البداية والنهاية ج ٥/٥).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان عثمان حينئذ يُمثل فريق الأغنياء من المؤمنين الذين يرتبطون عقلاً وقلباً بقضية الدعوة التى كانت حياتهم. وعليها مماتهم. وكان بها عزهم. وإذن. فحياتهم ذاتها فداء لها.. خاصة عندما تتعرض للخطر.

وإنهم ليصرفون النظر عن كل مشروعاتهم.. والتزاماتهم تجاه أهلهم وذويهم لتكون النفس والمال مرصودة لحساب الدعوة.. وأنفسهم بين جنوبهم تحمل على هذا البذل.. بل وتسعد به.

لم يكن عثمان وحده:

جاء عبدالرحمن بن عوف بمائتى أوقية فضة. وجاء أبو بكر بماله كله. لم يترك لعياله شيئاً.. وجاء عمر بنصف ماله.

ويعنى ذلك كله: تغلب الأغنياء على غرائز النفس المتشبثة بالمال.. وإنه الغلب الذى به يكون الانتصار فى كل المعارك.. خارج النفس.

من ثمرات هذه التضحية:

كانت مسارعة الواجدين إلى الإنفاق على هذا النحو المتميز.. دافعاً قوياً حمل الفقراء على الانبعاث.

أى أن حملة التبرع استنهضت همم الفاقدين الذين انطلقوا على حداء الإيمان يَعْرضون حياتهم رخيصة فى سبيل الله.

وما أكثر الفقراء - أمس واليوم وغداً - المستعدين للتضحية بحياتهم.. لا برغيف العيش.. لَوْ أن الطليعة القادرة كانوا روّادهم إلى العطاء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فإذا بذل الواجدون.. انقدحت الشرارة وسارع المؤمنون إلى البذل. وعندئذ يبرز واحد من أهم أسباب انتصار المسلمين. فإن تحقق.. جاء نصر الله والفتح وإن غاب.. غاب معه النصر المأمول:

إن الذى يضن بماله عن الإنفاق. يخيل إليه أن ذلك داع إلى نمائه. والواقع أنه داع إلى نفاده:

فإن الذين يضنون بأموالهم عن بذلها فى المنافع العامة. تضعف جماعتهم وتذل حيال الجماعات المزاحمة لها.

فيقتضى نظام الوجود أن يستولى الأقوى على الأضعف، ويمتص عصارته فلا يبقى له ولا يذر.

ومن شاء الدليل: فليتأمل الأمم التى يبذل آحادها الملايين فى سبيل المرافق العامة. تجدهم لا يزدادون إلا ثروة.

خلافاً لأفراد الجماعات الذين يدخرون المال ولا ينفقونه:

فتراهم يتدهورون جماهير وفرادى فى تيهور الفاقة.

فإن استطاع مؤسس الأسرة فيها أن يحتفظ بثروته. بتقتيره على نفسه. خَلَفه عليها من ينفقها بدداً. فى أهواء نفسه (١).

تنافس الفقراء:

أقبل الفقراء على رسول الله ﷺ يطلبون الحُملان لينالوا شرف الجهاد تحت لواء رسول الله.. حتى المرأة المسلمة، فقد تبرعت

---

(١) عن مجلة الأزهر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بقرطها، وخلخالها، وبالخواتم أيضاً!
ونتأمل معاً صوراً من هذه الاستجابة المخلصة.. والتى تنبئك بأن هذا التنافس وإن لم يف بحاجة الجيش كاملة نظراً لكثرة عدده.. إلا أنها تبقى دليلاً على أثر الإيمان فى توجيه المسلم إلى التى هى أقوم، وفى أقسى المواقف.

عمر يصف الموقف:

كان الموقف عصيباً على نحو ما أشرنا. ويكفى ما وصفه به عمر - رضى الله عنه - وهو الصابر الجلد. بما يؤكد بلوغ المشقة منتهاها:

روى أحمد والحاكم:

(عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال: خرجنا إلى تبوك. فى يوم قيظ شديد. فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش شديد. حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع. حتى إن كان الرجل ليذهب ليلتمس الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع. حتى إن الرجل لينحر بعيره. فيعصر كرشه. فيشربه. ويجعل ما بقى على كبده) (١).

البكاؤون:

عن أبى موسى قال:

(أرسلنى أصحابى إلى رسول الله ﷺ. أسأله الحُملان لهم

---

(١) محمد الغزالى فقه السيرة/٤٣٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذْ هم معه فى جيش العسرة وهى غزوة تبوك فقلت: يانبى الله: إن أصحابى أرسلونى إليك لتحملهم - فقال: «والله لا أحملكم على شىء».

ووافقته وهو غضبان. ولا أشعر.. ورجعت حزيناً من منع الرسول ﷺ. ومن مخافة أن يكون النبى وجد نفسه على - أى غضب.

فرجعت إلى أصحابى فأخبرتهم الذى قال النبى ﷺ فلم ألبث إلا سويعة. إذ سمعت بلالاً ينادى:

أى عبدالله بن قيس. فأجبته، فقال: أجب رسول الله ﷺ يدعوك. فلما أتيته قال: خذ هذين القرينين - لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد فانطلق بهن إلى أصحابك. فقل: إن الله. أو قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحملكم على هؤلاء فاركبوهن.

انطلقت إليهم بهن فقلت: إن النبى (يحملكم على هؤلاء. ولكنى والله لا أدعكم حتى ينطلق معى بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ. لا تظنوا أنى حدثتكم شيئاً لم يقله رسول الله ﷺ: فقالوا لى: إنك عندنا لمصدق. ولنفعلن ما أحبْبت - أى فأنت مصدق عندنا ولكن نفعل فقط ما تحب) (١).

١- ونحن أمام مجموعة من الشباب المنتمين إلى أمتهم الحاملين همّ الدين الذى وهبوه حياتهم. يعلنون بل يلحون أن

---

(١) البخارى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تتحقق رغبتهم فى الجهاد.

٢- وعلى مقتضى شريعة النظام لا يذهبون إلى الرسول فى مظاهرة، بل ينيبون أخا لهم فى عرض حاجاتهم.

٣- لكن موارد الدولة لم تسمح بتحقيق هذا الرجاء. فعاد المندوب حزيناً:

أولاً: مخافة أن يكون قد أحرج رسول الله ﷺ .

ثانياً: لأن أمله مع رفاق السلاح لم يتحقق. ولم يكن الأمل هنا نزهة أو دنيا يصيبونها.. ولكنه الموت فى سبيل الله - تعالى.

٤- وجاء الفرج بعد برهة قصيرة.. فاستُدْعِى لتسلم الأبعرة.

٥- ولا تنتهى مهمته بتحقيق الأمل.. بيد أنه يستبقى المودة. ويستديم الثقة به.. عندما حاول أن يزيل ما يمكن أن يكون قد علق بأذهان من أرسلوه. لأن المسافة الزمنية بين اعتذار رسول الله عن حملهم. وبين استدعائه لتسلم الأبعرة كانت قصيرة وهى التى عبر عنها بقوله: (ما هى إلا سويعة) أى لحظة صغيرة.. وربما اشتبه الأمر على أصحابه.. لأن المنع والعطاء كادا يكونان فى لحظة واحدة.. من أجل ذلك قرر أن يُشهد من سمع مقالة رسول الله ﷺ. ليعلم صدقه..

لقد انتخبوه نائباً عنهم فى التعبير عن آمالهم.. فليكن عند حسن الظن به دائماً.

٦- لكن ثقة رفاقه به كانت كما هى قوية.. إلا أنهم أجابوه إلى طلبه فى الاستيثاق جبراً لخاطره.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهكذا يتعاون الأصدقاء على البر والتقوى. ليظل الود موصولاً. وحتى يفوّتون على الشيطان خطته فى تفريق الشمل الجميع.

٧- ولا ننسى صراحة القائد الذى لم يغُش رعيته بمعسول الأمانى. وإنما صارحهم بحقيقة إمكانات الدولة وعجزها عن إجابة مطالبهم. فلما جاء الفرج أسرع بإرسال المعونة.

٨- ولا ننسى أيضاً نوع القضية التى من أجلها يعمل هؤلاء الشباب: إنها ليست حكماً شرعياً فرعياً لا تكلفهم معرفته مالاً أو طاقة. وإنما هى قضية الحياة والموت فى سبيل الله.

٩- ولا يغيب عن بالنا رد الفعل لدى الشباب حين ضاقت موارد الدولة.. فلم يكن مظاهرة ولا مغامرة. ولكنه الإشفاق من فوت فرصة العمل بالجهاد فى سبيل الله.. ثم الأمل الوثيق فى فرج قريب.. والاحتفاظ بالطاقة لساعة قريبة وسوف يبذلونها رخيصة.

ومن البكائين علبة بن زيد:

عندما دعا النبى ﷺ إلى تجهيز غزوة تبوك تقدم علبة بن زيد ولم يكن معه غير سلاحه. ولا مال هناك ينفقه. ولم يجد النبى ﷺ ظهراً يحمله عليه. فماذا فعل؟

روى «البيهقى» فى الدلائل:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن علبة بن زيد قام من الليل فصلى. وأخذ يبكى.. ثم ناجى ربه وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغّبت فيه.. ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به مع رسولك. ولم تجعل فى يد رسولك ما يحملنى عليه.

وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها: مال أو جسد أو عرض.

ثم أصبح مع الناس. فقال النبى ﷺ:

«أين المتصدق بهذه الليلة؟»

فلم يقم أحد.

ثم قال: **«أين المتصدق بهذه الليلة..»**

فلم يقم أحد.

ثم قال: «أين المتصدق؟ فليقم...» فقام. فأخبره.

فقال ﷺ: «أبشر. فوالذى نفس محمد بيده: لقد كُتِبَت فى الزكاه المتقبَّلة» (١).

ولندع الذين أسعدتهم أقدارهم بالاشتراك فى المعركة.. ولنعش مع «علبة بن زيد» فماذا فى موقفه من معان؟:

لقد توفر له عذر فى التخلف.. وكان المتوقع أن يرضى بالواقع المفروض.. لكن ضميره لم يهدأ حتى يجد لنفسه مخرجاً عند رسول الله.

---

(١) البداية والنهاية: ج ٦/٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فلما ضعف أمله فى ذهابه مع إخوانه للمعركة.. ظل إيمانه متوهجاً. والمعركة حية فى ضميره. فتبرع بكيانه لمن استهدفه من المسلمين فى ماله أو جسده أو عرضه.. وإذا فاته أن يبذل روحه تحت ظلال السيوف.. فهو يبذلها فى الجبهة الداخلية إلى الله - تعالى.

ومعنى ذلك أن إيمان الرجل المتحمس لا يرضى إلا بالعمر كله يقدمه طواعية.. فإن لم يتمكن.. فإنه ما يزال مدَّخراً.. لمعركة قريبة يحقق فيها أمله فى الشهادة التى كانت مستراد آماله. وإلى أن تجىء هذه المعركة. فهو راصد كيانه كله لله ولرسوله والمؤمنين.

الذين انتصروا على أنفسهم:

كان فى المسلمين من ضعفت عزائمهم. ووهنت إرادتهم. حين وقعوا تحت ضغوط ثقيلة.. فلم ينشطوا للمعركة فى مراحلها الأولى.. ثم صحا فيهم الضمير.. فلما أفاق حَمَل السلاح. ولحق برسول الله ﷺ. ومنهم من أبطأ به بعيره.

ولقد أحس الذين أسعدهم القدر فوفقهم لاتخاذ قرار الجهاد مع رسول الله أحسوا بالخير الذى فات إخوانهم بقعودهم مع الخوالف.

وكانوا يذكرون للرسول ﷺ ذلك. لكنه لم يقطع الأمل فى لحاقهم بهم. كاشفاً عن شفقة القائد على جنده وحرصه حتى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

آخر لحظة على أن يكونوا تحت لوائه.

وكان الرجل يتخلف فيقولون: يارسول الله: تخلف فلان. فيقول: «دعوه. إن يك فيه خير فسيُلحقه الله بكم. وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه» .

حتى قيل يارسول الله: تخلف أبو ذر وأبطأ بعيره. فقال" «دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه».

فتلوم أبو ذر بعيره.. فلما أبطأ عليه. أخذ متاعه. فجعله على ظهره. ثم خرج يتبع رسول الله ماشياً.

ونزل رسول الله ﷺ بعض منازله. ونَظَر ناظرٌ من المسلمين فقال: يارسول الله: هذا الرجل ماش على الطريق فقال: «كن أبا ذر».

فلما دنا القوم قالوا: يارسول الله: هو والله أبو ذر فقال صلى الله عليه وسلم: «يرحم الله أبا ذر: يمشى وحده. ويموت وحده. ويبعث وحده» (١).

أبو خيثمة:

كما سعد المسلمون بقدوم أبى ذر. فقد سعدوا أيضاً بقدوم أبى خيثمة:

ومن قصته أنه (رجع بعدما سار رسول الله ﷺ أياماً إلى

(١) البداية والنهاية ج ٥/٩٠٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أهله. فى يوم حار. فوجد امرأتين له فى عريش لهما. فى حائطه قد رشت كل واحدة منهما عريشها. وبردت فيه ماء. وهيأت له فيه طعاماً، فلما دخل. قام على باب العريش. فنظر إلى امرأتيه. وما صنعتا له فقال: رسول الله ﷺ فى الضح. والريح. والمطر. وأبو خيثمة فى ظل بارد، وطعام مهيأ وامرأة حسناء، فى ماله مقيم، ما هذا بالنصف!!.

والله لا أدخل عريش واحدة منكما. حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيئا زادا. ففعلتا. ثم قدم ناضحه. فارتحله ثم خرج فى طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل بتبوك.

فلما دنا. قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل. فقال ﷺ: «كن أبا خيثمة». فقالوا: يارسول الله: هو والله أبو خيثمة.

ثم أخبر رسول الله الخَبَرَ. فقال خيراً. ودعا له بخير (١).

وتأمل رفاق السلاح يبتهجون بنفرة المجاهدين الذين افتقدوهم فلم يجدوهم. ولقد كان من تدبير الله - سبحانه وتعالى - أن يحدُث ذلك .

فقد كانت فرصة أظهرت معادن الرجال.. وردت كيد الأعداء الظانين بالمسلمين ظن السوء.

وكفى بهذا شهادة لمثل «أبى خيثمة» الذى أحاطت به كل المغريات. من المال.. والبنين.. والنساء.. وكادت أن تشل

---

(١) البداية والنهاية ج٥/٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حركته.. لكنه انتزع نفسه انتزاعا كشف عن عمق الإيمان وقوته وقدرته على الاستعلاء فوق جواذب الأرض.

الثلاثة الذين خلفوا:

فى هذه اللحظات التاريخية من حياة الدعوة الإسلامية حدث أن تخلف ثلاثة من الصحابة عن الغزوة- مع صدق إيمانهم-. وكان من تدبير الحق - سبحانه وتعالى - أن يكون هذا التخلف - ورب ضارة نافعة - لما سيسفر عنه فى النهاية من دروس كان لابد منها لإعداد الأمة لخوض معارك المستقبل.

ونستمع إلى تفاصيل القصة من أحد أبطالها وهو «كعب بن مالك» - رضى الله عنه: عن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب ابن مالك أن عبدالله بن كعب بن مالك- وكان قائد كعب من بنيه حين عمى- قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها إلا فى غزوة تبوك، غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام، وما أحب أن لى بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها. كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط، حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ولم يكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ .

فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا، وعدوا كثيرا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذى يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم، كتاب حافظ- بريد الديوان.

قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، مالم ينزل فيه وحى الله. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا فأقول فى نفسى: أنا قادر عليه. فلم يزل يمادى بى حتى اشتد بالناس فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا .

فقلت أتجهز بعده بيوم أو بيومين، ثم ألحقهم فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئا فلم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتنى فعلت فلم يقدر لى ذلك، فكنت إذا خرجت الناس- بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق أو رجلا ممن عذر الله من- الضعفاء- ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك: ما فعل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كعب؟ فقال رجل من بنى سلمة: يا رسول الله حبسه برداه، ونظره فى عطفه. فقال معاذ بن جبل بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا، فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك فلما بلغنى أنه توجه قافلا حضرنى همى، وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا؟ واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عنى الباطل وعرفت أنى لن أخرج منه أبدا بشىء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادما وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له- وكانوا بضعة وثمانين رجلا- فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال: «تعال» فجئت أمشى حتى جلست بين يديه، فقال لى: «ما خلفك»؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» فقلت: بلى إنه والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلا ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه أنى لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان لى من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك» فقمت. وثار رجال من بنى سلمة- فاتبعونى فقالوا لى: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، وقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. فوالله مازالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع أكذب نفسى ثم قلت لهم: هل لقى هذا معى أحد؟ قالوا نعم رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة ابن الربيع العمرى، وهلال بن أمية الواقفى، فذكروا لى رجلين قد شهدا بدرا فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لى ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى التى أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشد للقوم وأجلدهم فكنت أخرج- فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف فى الأسواق، ولا يكلمنى أحد وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريبا منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى وإذا التفت نحوه أعرض عنى. حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة، وهو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابن عمى، وأحب الناس إلىّ، فسلمت عليه، فوالله مارد السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلمنى أحب الله ورسوله فسكت. فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له نشدته فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار.

قال: فبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب ابن مالك؟ فطفق الناس يسيرون له: حتى إذا جاءنى دفع إلى كتابا من ملك- غسان فإذا فيه: أما بعد فإنه بلغنى أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، ألحق بنا نواسك فقلت لما قرأته: وهذا أيضا من البلاء. فتيممت بها التنور فسجرته بها حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ فقال: «إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها» وأرسل إلى صاحبى مثل ذلك فقلت لامرأتى: إلحقى بأهلك فتكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربك. قالت: إنه والله ما به حركة إلى شىء. والله مازال يبكى منذ كان من أمره ما كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى يومه هذا. فقال لى بعض أهلى: لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه
فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدرينى ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلا منا.
فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله قد ضاقت على نفسى وضاقت علىَّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ فى أعلى جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر. قال: فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرج وأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبى مبشرون وركض إلى رجل فرسا وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبىَّ فكسوته إياهما ببشراه والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقانى الناس فوجا فوجا يهنئوننى بالتوبة يقولون: لتهنئك توبة الله عليك.
قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلىَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صافحنى وهنأنى، والله ما قام إلىَّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: «بل من عند الله». وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسول الله. قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك». قلت: فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر. فقلت: يا رسول الله إن الله إنما نجانى بالصدق وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت. فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث- منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ- أحسن مما أبلانى، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا كذبا وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت. وأنزل الله على رسوله

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى
ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى
سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ
مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾
وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾(١).

فوالله ما أنعم الله علىَّ من نعمة قط -بعد أن هدانى للإسلام أعظم من صدق لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى:

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(٢).

قال كعب: «وكنا تخلفنا نحن الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه فبذلك قال الله - تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾(٣).

(١) التوبة: (١١٧: ١١٩) (٢) التوبة: (٩٥، ٩٦) (٣) التوبة: (١١٨)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وليس الذى ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا ورجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه».

وقبل أن نركز على بعض الدروس المستفادة من قصة هؤلاء الثلاثة نبادر إلى توضيح معنى مهم:

لقد كان من حكمة الله - تعالى - أن يكون هذا المنعطف الخطر على منحدر عمر الدعوة ليقى الله أمته من الطابور الخامس المندس فى كيان الأمة ولا يشعر به أحد من المنافقين الذين رشحت بثور الحقد على وجوههم.. والذين جاءوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم (مصفرة وجوههم. يابسة جلودهم. كأنهم الأشباح خارجة من قبورها).

وأيضا ليحميها من غلاظ الأكباد. بجاح العيون من المشركين الظانين بالله ظن السوء.

وبذلك يتميز الصباح من ظلمة الليل. وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة.

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾(١).

(١) التوبة: (٤٦، ٤٧)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دروس لأولى الألباب:

فى هذه القصة المثيرة دروس نلفت النظر إلى بعضها تبصرة وذكرى.

أوفى الأبناء يروى عن أبيه:

(عن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك: أن عبدالله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمى- قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن قصة تبوك...).

إن الابن الوفى -عبدالله بن كعب- يلازم أباه حين فقد بصره.. فكان قائده عبر الطريق.

وفى نفس الوقت كان راويته الأمين: يتلقى عنه.. ويتعلم منه.. ويعيش الولد مع أبيه أخطر أيام عمره.. فيدرك الشاب طبيعة الطريق الإيمانى المحفوف بالأشواك.. ليأخذ وضع الاستعداد للتعامل مع المستقبل.

ولا يتحرج الولد من نقل قصة تحمل معنى الإدانة لأبيه على نحو ما.. ينقلها بأمانة المؤرخ الواعى.. مدركا أن نسبة الحرج التى قد تصيبه لا تساوى شيئا أمام ما يحققه الموقف من عبر تصلح بها الأمة كلها.

كعب ينفى عن نفسه تهمة التقصير:

(قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها إلا فى غزوة تبوك.

غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر. ولم يعاتب أحدا تخلف عنها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش. حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة، حيث تواثقنا -تعاهدنا- على الإسلام. وما أحب أن لى بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها..).

إن كعبا - رضى الله عنه - يدافع عن عسكريته بأنه لم يتخلف إلا عن تبوك.

وإذا كان قد تخلف فى «بدر» فلأن الأمر فيها يختلف عنه فى تبوك، من حيث كانت القضية فى بدر قضية العير ابتداء.. ثم فُرض القتال الذى لم يكن فى الحسبان. ولذلك لم يكن هنا عتاب على من تخلف .

ومع ذلك فقد شهد «بيعة العقبة» التى وإن كانت «بدر» أشهر منها. إلا أن شهود العقبة أدخل فى الأهمية وأدل على صدق الإيمان الذى تم والمسلمون ضعاف.

أى أن تخلفه فى «بدر» لم يكن مع سبق الإصرار.. لأن الأمر فى بدر أريد به توجيه ضربة اقتصادية إلى العدو.. وشاء الله - تعالى - أن تكون مواجهة عسكرية.

النقد الذاتى:

(... كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر، حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط. حتى جمعتهما فى تلك الغزوة) ويعترف المقاتل هنا بخطئه البين.. فى شجاعة تدل على أصالتها فى قلب الرجل..

وقبل أن تناوشه سهام النقد من هنا وهناك.. يتولى هو نقد نفسه نقدا ذاتيا لاذعا..

فقد كان من ناحية اللياقة العسكرية.. فى أقوى حالاته.. ومن ناحية عدة القتال فقد كان لديه ما يحمله ويحمل غيره.

وبينما عاد غيره يبكى لأنه لم يجد ما يُحمل عليه.. كان هو على أوفى ما تكون القدرة.. والقوة.. ومع ذلك غلبت عليه نفسه.. مشيرا بذلك إلى الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس.. ومدى قدرته على التأثير.. التأثير لا على عمق الإيمان فقط.. ولكن على تخدير الإرادة حتى لا تستطيع أن تتخذ قرار الحرب.. بينما الجو ملبد بغيوم داكنة.

صعوبة الموقف:

لقد كان يكفى «كعبا» أن يعترف بخطئه علانية.. لكنه لم يكتف بذلك.. فأصدر بنفسه.. على نفسه حكما حاسما.

ذلك بأنه يريد استئناف حياة جديدة.. لا رجعة فيها إلى مثل ما كان منه فى تبوك.. ولذلك.. كان صريحا صراحة من يبوح بكل أسرار النفس مهما كانت قسوتها حتى لا تبقى فيه بقية تؤرقه ذكراها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان من تمام الاعتراف بالتقصير.. ما حكاه من صعوبة موقف المسلمين والذى كان يفرض عليه الجهاد:

وذلك قوله:

(.... ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد.. واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وعدوا كثيرا.

فجلى للمسلمين أمرهم، ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذى يريد. والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير. ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان.

قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحى الله.

وغزا رسول الله تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال..).

إن الرجل ليكاد يقول: إنه سقط فى الامتحان.. فقد كانت كل الدلائل تشير إلى صعوبة الموقف.. وفداحة النتائج التى تتمخض عنها الحرب.. ومع ذلك فقد آثر الثمار.. والظلال.. والأهل والولد.

ومع ذلك.. فلا يأس مع الإيمان.. وليكن الاعتراف بداية لميلاد جديد.. بما يشير إليه من دروس وعبر.

إذا كنت ذا رأى فكن ذا ع عزيمة

قال كعب رضى الله عنه:

... وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغدوا لكى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أتجهز معهم. فأرجع.. ولم أقض شيئا. فأقول فى نفسى: أنا قادر عليه. فلم يزل يتمادى بى. حتى اشتد بالناس الجد. فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه. ولم أقض من جهازى شيئا. فقلت: أتجهز بعده بيوم، أو بيومين.. ثم ألحقهم..

فغدوت بعد أن فصلوا. لأتجهز. فرجعت.. ولم أقض شيئا ثم غدوت. ثم رجعت. فلم أقض شيئا. فلم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو. وهممت أن ارتحل فأدركهم..).

وتأمَل «كعبا» رضى الله عنه - وهو يحكى بدقة رحلته النفسية التى بدأ فيها أول الأمر قويا مستعدا. ثم كيف انطفأ ذلك البريق.. رويدا رويدا.. وكل تردد.. يلد ترددا.. وكل فتور.. يولد فتورا.. حتى صارت الإرادة فى النهاية ذُبالة خافتة.. تطفئها هبة النسيم!

إنه لم يحسم الموقف منذ اللحظة الأولى.. فلما تراخى الحبل فى يده.. تراخت إرادته فى نفس اللحظة على خط مواز.

ورحم الله الشاعر القائل:

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة

فإن فساد الرأى أن تترددا

وقد كان «كعب» - رضى الله عنه - مدركا خطورة الموقف.. وأنه لا يحتمل التسويف..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فلما سمح لخواطر القعود أن تتدخل فى حياته.. صارت هذه الخواطر جنودا للشيطان سلطها عليها.. فقعدت به فى منزله.

رياح الندم تهب:

قال كعب: «وليتنى فعلت.. فلم يقدر لى ذلك».

واستيقظت مشاعر الندم.. حين لا ينفع الندم.

ولكن.. لماذا اشتعل قلب الجندى المسلم ندما؟

يجيب هو قائلا:

(... فكنت إذا خرجت فى الناس -بعد خروج رسول الله ﷺ- فطفت فيهم: أحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموصا(١) عليه النفاق أو رجلا: ممن عذر الله من الضعفاء).

لقد بدأ الحزن النبيل يهز الرجل.. لينفض عنه آثار الغفلة..

وبدأ حساب النفس العسير.. بما يرى ويسمع من منغصات تلسع ضميره الإيمانى والعسكرى.. ففاض الأسى من قلبه نهرا طهورا سوف يغسله.. ليعود كما كان. لقد وجد نفسه غريبا فى وطنه بعد أن سبقه الفرسان إلى معركة الشرف.. ولم يجد حوله إلا المنافقين.. أو المرضى..

فكان ذلك الدرس العملى بداية لسلسلة من العذاب النفسى.. فجرت فى كيانه ثورة من الندم أن لم يكن مع رسول الله

---

(١) أى فات وسبق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مجاهدا.. ولاسيما ومسوغات الجهاد وفيرة كثيرة:

١- لقد أخل بواجبات إيمانه الذى يفرض عليه أن يهب للدفاع عنه.. طاعة لرسول الله.

٢- وأخل أيضا بواجبه كرجل من الأنصار الذين بايعوا محمدا على الجهاد فى بواكير الدعوة.

٣- ثم هو القائد العسكرى المرموق.. ومكانه هناك فى الجبهة قدوة حسنة.. تقاتل.. فتحض على القتال.. وإذا كان هناك من يرضى ليقعد مع الخوالف فليس هو «كعب بن مالك».

٤- لم تكن له فى يوم من الأيام غميزة فى دينه، ولا فى عسكريته فما الذى دهاه حتى تخلف.. جالبا على نفسه شبهة التقصير وكل وقائع حياته تنفى ذلك. بينما غيره ممن لا يرتقون إلى سمائه هرعوا إلى المعركة دونه.

٥- وأين هو من البكائين الذين بللوا الأرض بدموعهم لأنهم لم يجدوا ما يحملونه عليه.. بينما هو يستخذى وكل الدواعى تحضه على القتال؟

القائد الأعلى يتفقد جنده:

قال كعب (... ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم: ما فعل كعب؟

فقال رجل من بنى سلمة: يا رسول الله: حبسه برداه.. ونظره فى عطفه (١).

---

(١) العِطف: الجانب والمراد: إعجابه بنفسه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت: والله يا رسول الله. ما علمنا عليه إلا خيرا.

فسكت رسول الله ﷺ..).

ونبادر هنا فنلفت النظر إلى يقظة القائد الأعلى الذى يعيش مع الأمة معركتها على الطبيعة من غرفة القيادة.

يقول الدكتور حسين مؤنس (١):

(ومن دلائل فطنته ﷺ أنه كان يعرف وجوه كل أصحابه حتى فى كبار المغازى. وكان دائم التصفح لوجوههم، فإن وجد فيهم غريبا. أنكره، وأقبل على صاحبه يسأله عن أمره.

وفى أكثر من مرة تبين أن الوجه الغريب لدسيس على المسلمين. دخل فى جملتهم يستطلع أمورهم، ليبلغ الأعداء ما رأى، وما سمع، فيكون الرسول من دون عامة أصحابه هو الذى يكشف أمر الجاسوس الدسيس.

فإذا انكشف أمره. دعاه الرسول إلى دخول الإسلام فإن دخل فيه عفا عنه؛ لأن الإسلام يجُبُ ما قبله.

بل يبلغ الأمر أن يكون الدسيس قد اندرج فى جملة المسلمين.. يريد بالرسول أذى.. فلا يكاد يرى وجه الرسول. ويسمع صوته.. حتى تزول من نفسه كراهته ويصبح من أحب الناس إليه فيسلم على يديه وينتهى الأمر.).

---

(١) دراسات فى السيرة النبوية: ١١٨

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بين الغيبة والنقد:

وفى تفقده ﷺ لجنده.. اكتشف غياب كعب - رضى الله عنه - فلما سأل عنه.. جاءه جوابان مختلفان:

فقد حمل عليه واحد من رفاق السلاح.. ناعيا عليه تخلفه... بينما رد «معاذ بن جبل» عنه ذلك السهم بالدفاع عنه..

والملفت للنظر: أن الرسول ﷺ سكت.. ولم يعقب!

ومعنى ذلك أنه موافق على وجهتى النظر على ما بينهما من اختلاف.. وربما جاز لنا أن نقول: إن الذى هاجم.. والذى دافع.. كلاهما يصدر من مشكاة واحدة: هى الغيرة على الحق.. والغيرة على المخلصين الذين يعرضون إخلاصهم للخطر بالتخلف عن موقع هم أجدر الناس به.. فالنقد هنا بناء، لا يجرح.. وإنما يصلح.

وللهجوم ما يسوغه.. وللدفاع أيضاً ما يسوغه.

ومعنى ذلك أنه لا بأس بالنقد البناء المستهدف تجلية الحق.

وتنبيه المخطىء ولو بقوة إلى حجم خطئه ليعود إلى الصف.

وحينئذ يكون النقد القاسى نصيحة يقدمها الناقد تذكر فتشكر.

وبذلك يتضح الفارق البعيد بين النقد الهادف .. والغيبة الهادمة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللحظة الحرجة:

(.. قال كعب بن مالك:

فلما بلغنى أنه توجه قافلا حضرنى همى.. وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا؟ واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى. فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما.. زاح عنى الباطل. وعرفت أنى لن أخرج منه أبدا بشىء فيه كذب، فأجمعت صدقه..).

عندما استدار الرسول راجعا.. حضرهم كعب فى أوانه، وبدأ يعد نفسه للمساءلة.. فرتب أوراقه فى محاولة للخروج من سخط رسول الله ﷺ.

وطاف برأسه طائف يزين له الكذب الذى يمكن به أن يخرج من عنق الزجاجة.. ولم يعش محنته وحده.. ولم يستقل فيها برأى.. بل شاور المخصلين من أهله.. فلما وصل الرسول ﷺ فعلا.. رزقه الله – تعالى – نعمة التوفيق فأراه الحق حقا.. وأجمع أمره.. وكانت عزمة من عزمات الخير حين قرر أن يكون صادقا مع نفسه.. ومع رسول الله ﷺ.

الحساب اليسير:

(وجاء المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه.. ويحلفون له– وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويلاحظ هنا يُسر الحساب على قدر ما للمعتذرين من وزن خفيف..
إنهم لم يتركوا فراغا يذكر عندما غابوا..
أما المخلصون من أمثال كعب.. فإن إخلاصهم محسوب عليهم.. ومن ثم كان حسابهم عسيرا:

الرجوع إلى الحق:

إن الدولة والدعوة للمخصلين لها. وانتصار الحق منوط بجهادهم. فإن هم تخلفوا فمن ذا الذى ينوب عنهم؟
سوف ينتهى كل شىء فى غيابهم..
من أجل ذلك.. كان حساب «كعب» - رضى الله عنه - على قدر مكانته.
قال كعب: (فجئته. فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب. ثم قال: «تعال» فجئته أمشى. حتى جلست بين يديه. فقال لى: «ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت (١) ظهرك؟فقلت بلى إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلا ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه أنى لأرجو فيه عفو الله.

(١) اشتريت بعيرك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا والله ما كان لى من عذر، والله ما كنت قط أقوى، ولا أيسر منى حين تخلفت عنك.

فقال رسول الله ﷺ:

«أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك : فقمت »

كانت بسمة الرسول صلى الله عليه وسلم مشوبة بنسبة من العتاب الغاضب على فارس مثل كعب بن مالك تسمح له نفسه أن يقعد مع الخوالف.. بينما مكانه هناك على خط النار.

وكعب - رضى الله عنه - كان يفهم ذلك جيدا.. وهو سر عذابه فى نفس الوقت!

ولقد كان بإمكانه أن يضلل العدالة بما يملك من الكلام الساحر.

ولكنه بإحساس المريض الراغب فى الشفاء.. كاشف الرسول بكل شىء حتى يطب له.. فيخرج من بحر التمزق طاهراً آمنا.. كما كان.

أنقذته نفسه اللوامة.. من هذا الضغط الثقيل.. فآثر الصدق.. فكانت نجاته فى صدقه.. الذى أعلنه صلى الله عليه وسلم.

قلوب المؤمنين مع المذنبين:

(وثار رجال من بنى سلمة. فاتبعونى فقالوا لى: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون.. قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فوالله ما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى.
ثم قلت لهم: هل لقى هذا معى أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت. فقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلت: من هما؟
قالوا: مرارة بن الربيع العمرى ، وهلال بن أمية الواقفى.
فذكروا لى رجلين قد شهدا بدرا. فيهما أسوة فمضيت حتى ذكروهما لى..).

لم يفرح المؤمنون الذين استجابوا للرسول فى تبوك تاركين إخوانهم المعذرين(١) يأكلهم الهم والحزن.

بل كانت لهم محاولات للوقوف إلى جانب أخيهم المصاب.. فكان هذا الاقتراح بإعادة المحاولة رغبة فى النجاة من قسوة الموقف.

ولم يأت هذا الاقتراح من فراغ:

فإن لكعب - رضى الله عنه - ماضيا يشهد له. إلى جانب أن ذنبه مهما كان فسوف يغسله استغفار رسول الله ﷺ.

ومالت نفس كعب إلى اقتراح يصادف هوى فى نفسه.. إلا أن عزيمة الصدق كانت أسرع إليه من رغبة النفس.

والأحرار من الرجال يتحملون قسوة الموقف.. ولا يترخصون

---

(١) بضم الميم وسكون العين وكسر الذال: من له عذر مقبول أما المعذِّرون بتشديد الذال المكسورة فهم من يظنون أن لهم عذار ولا عذر لهم. قال تعالى: (وجاء المعذرون) [التوبة: (٩٠)] قال ابن عباس: رحم الله المعْذرين - بسكون العين - ولعن الله المعذِّرين بتشديد الذال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

احتفاظا بكرامتهم فى القمة.. ومن ذلك ما قاله الشاعر:

إذا قيل: هذا منهل. قلت: قد أرى

ولكن نفس الحر تحتمل الظما

ولقد كان كعب - رضى الله عنه - حرا.. وكان فوق ذلك مؤمنا.. فاختارما يليق بالأحرار المؤمنين. حين قرر الثبات على موقفه الصعب منحازا فى نفس الوقت إلى رفيقيه.. مرارة.. وهلال.. والمصائب يجمعن المصابينا.

من سمات المجتمع الإسلامى:

وهنا تظهر بعض ملامح المجتمع الإسلامى المترابط:

يخطىء المسلم.. فلا يقسو عليه إخوانه.. حتى لا يقطعوا بالقسوة طريق عودته إلى الحق. بل يأخذون بيده.. وبرفق، لينهض من جديد.

وما أحوج الخطائين إلى اليد الحانية تمتد إليهم.. لتصل بهم إلى بر الأمان. فإذا انكمشت هذه اليد فلم تمتد.. تحمل المتفرجون كفلا من المسئولين بما فرطوا فى جنب الدعوة التى لم تكن هدفهم حين نكصوا على أعقابهم.. وإنما كانت الأهواء تملى لهم.

المقاطعة:

قال كعب (ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلف عنه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فاجتنبنا الناس. وتغيروا لنا. حتى تنكرت فى نفسى الأرض. فما هى التى أعرف.

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأما صاحباى. فاستكانا. وقعدا فى بيوتهما يبكيان.

وأما أنا: فكنت أشبَّ القوم. وأجلدهم:

فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين. وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد.

وآتى رسول اللّه ﷺ، فأسلم عليه. وهو فى مجلسه بعد الصلاه فأقول فى نفسى: هل حرك شفتيه برد السلام علىَّ أم لا؟

ثم أصلى قريبا منه. فأسارقه النظر. فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلىّ وإذا التفت نحوه أعرض عنى).

لقد كان لقرار المقاطعة ما يسوغه:

أولا: أين هو كعب العربى الأبىّ؟ وكيف طاوعته نفسه فقعد.

وفى سمعه ما قاله الشاعر المعبر عن هذا الإباء الذى هو فطرة العربى وسليقته:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم

عن النساء ولو باتت بأطهار

أى لا صوت هناك يعلو فوق صوت المعركة.. وكل المآرب الشخصية مهما ألحت دواعيها.. تنحسر.. ليبقى الولاء كله

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للمعركة الفاصلة.

ثانيا: أين كان كعب بن مالك المؤمن.. والذى تسلم مع الصحابة الرسالة وديعة غالية؟

ومن الذى سوف يوصلها إلى الأجيال من بعده كاملة كما تسلمها؟

ثالثا: لقد كان القرار صارما.. على قدر خطره وأثره.. وكان لابد من درس يسامت الخطأ.. ويجتث أسبابه من النفوس.. كل النفوس... لا نفسِ كعب ورفيقيه فقط..

إن الرسول ﷺ يضرب بقوة ليجنِّب الأمة الإسلامية داء سوف يتهدد وجودها مستقبلا، وهو حب الدنيا وكراهية الموت.. إنه الوهن الذى سوف يقذفه اللّه فى قلوب الأمة من بعد والذى بدت مقدماته فى قعود كعب وغيره.. وركونه إلى الظل والأهل. بينما مصير الأمة تحت رحمة أعدائها.

وإذن فلابد من العقاب.. وليكن العقاب جماعيا.. وعلى مدى خمسين ليلة.

ونلاحظ فى هذه المقاطعة ما يلى:

١- كانت الاستجابة جماعية، وفورية.

٢- وكانت من الالتزام لدرجة أن الأرض تغيرت حتى لم تعد هى أرضه التى يعرفها.

٣- حين أُخبر كعب أن زميليه استكانا وقعدا يبكيان. حاول أن يعتذر عنهما بأنه كان شابا دونهما.. فكان أقدر منهما على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطواف والمواجهة وفى الاعتذار فى ساعة العسرة ما فيه من نبل.

٤- تحمل كعب - رضى اللّه عنه - قسوة الموقف بمفرده.. وكانت فرصة تقَلَّب فيها على ما يشبه الجمر المتقد.. حين يقبل على إخوانه.. فيعرضون.. وحين يسارق الرسول ﷺ النظر لعله يحْظى منه ببارق من الرضا.. يفك الحصار المضروب.

خط الدفاع الأخير:

يقول كعب - رضى اللّه عنه:

(.. وحتى إذا طال علىّ ذلك من جفوة الناس. مشيت حتى تسورت جدار حائط(١) أبى قتادة وهو ابن عمى. وأحب الناس إلىّ، فسلمت عليه فواللّه ما رد علىَّ السلام.

فقلت يا أبا قتادة: أنشدك اللّه، هل تعلَمُنى أحب اللّه ورسوله؟ فسكت.. فَعُدت له، فنشدته. فسكت. فَعُدت له فنشدته. فقال: اللّه ورسوله أعلم. ففاضت عيناى. وتوليت حتى تسورت الجدار).

لقد كان هناك أمل لا يخبو ضياؤه فى قلب «كعب» - رضى اللّه عنه - أن تنكشف هذه الغمة.. ويَنْفرج ذلك الهم الذى شل

---

(١) بستان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حركته حين خاصمه الجار.
والصاحب.. وزميل العمل .
فلما اتجه إلى ابن عمه وجد نفس الإصرار على المقاطعة التزاما بتنفيذ أمر رسول الله ﷺ.
إصرار تأبى على عواطف القربى. ولحمة النسب. رغم محاولات استنطاق ابن عمه الحبيب «أبى قتادة».
فلما فاضت عيناه حزنا أن لم يجد مجيبا استسلم للقضاء..
فى لحظة يحس فيها المذنب بحجم المعصية.. وآثارها.. وهى نفس اللحظة التى يدبر اللّه - تعالى - فيها لعبده الذى لا يُحْسن التدبير.. إذ يهيئ له أسباب التوبة النصوح بهذا الامتحان العسير.. حتى يعلم أن هناك ما هو أغلى من الحياة نفسها.. وهو الحق.
ومن خلال هذه المحنة العصيبة تخرج الرجولة أنصع جوهرا: لتكون أقدر من بعد على الصّمود فى وجه الأحداث.
إن البَحّار لا يمتحن فى النهر الهادئ.. ولكنه يمتحن فى البحار الصاخبة.
يقول أحد المغامرين.. (والقياس مع الفارق):
(حيث الطرق ممهدة.. منبسطة.. أفقد أملى. وحيث البحار مصطخبة.. والسموات ملبدة.. أجد طريقى وأملى. كل ما هو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سهل واضح يكربنى.. وكل ما هو جائش.. متعرج.. مكفهر.. يأْسرنى. لابد لى من جلبة أقهرها.. كى أعرف الهدوء ولابد لى من فوضى أطوعها.. كى أقر النظام. ولابد لى من ظلام أبدده.. كى أرى النور.. وهذا النور وليد الكفاح.. فهو الصفاء.. والصفاء الذى ينشده الإنسان من كفاحه غايته الأخيرة العليا.

وهذه الغاية الأخيرة العليا.. تتمثل فيها قدرتك يا اللّه)

الصائدون فى الماء العكر:

قال كعب:

(.. فبينا أنا أمشى بسوق المدينة. إذا بنبطى - تاجر - من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟

فطفق الناس يشيرون له. حتى إذا جاءنى. دفع إلىّ كتابا من ملك غسان فإذا فيه:

(أما بعد: فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك. ولم يجعلْك اللّه بدار هوان ولا مضيعة. فالحْق بنا نواسك.

فقلت لما قرأتها: وهذا أيضا من البلاء. فيممت بها التنور، فسَجَرته بها).

إن أعداء الإسلام لا ينامون.. وهم دائما ينتظرون ويتربصون. فما دام المسلمون أقوياء.. وما دام الصف الإسلامى كالبنيان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المرصوص يشد بعضه بعضا. فإن أعداءنا لا يحاولون اختراقه..

ولكنهم يتحينون الفرصة المناسبة.. التى تكون الضربة فيها مؤثرة..

وقد وجدوها. عندما نقل إليهم عملاؤهم فى الداخل.. والمندسون بيننا.. بأن «كعبا» يعيش محنة قاسية.. وهنا تحركت الأفعى لتنفُث سمومها الناقعات..

ولقد كان هناك غير كعب ممن تخلفوا.. بيد أنهم لم يكونوا فى بؤرة الشعور.. وكان التركيز على «كعب» بالذات.. لما له من خطر عظيم.. ولو استطاعوا كسبه لكان ذلك سهما موجعا فى كَبِد الأمة..

ولقد كان من المتوقع أن تنجح المحاولة ولو جزئيا.. نظرا لقسوة الموقف الذى لم يترك «لكعب» خيارا.. ولم يكن أمامه الا أن يرحل تحت ضغط الواقع الثقيل.. إلى حيث يجد لدى ملك غسان متسعا.

هكذا ظن المغرضون.. ولكن الذى لم يتوقعوه هو هذا الإيمان الذى لا يزيد المؤمن إلا ثباتا ورسوخا.

لقد أدرك كعب بحسه البصير مرامى هذه اللعبة السياسية الانفصالية..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأدرك أيضا خبث الدوافع من ورائها.. فكان رده فوريا.. فأشعل الخطاب نارا. فلم يكتف بتمزيقه بل جعل الخطاب الآثم طعمة للنيران.. ليفلت من جاذبية الموقف الذى يَتزين له مستغلا عزلته وغربته.. وليعلم الماكرون أن مكرهم إلى زوال فلا يحاولوا استئناف التجربة معه أو مع غيره.

لقد كان كعب يمتلك عزما.. زانه حزم أنهى الجولة لصالح الحق.. لقد جرب - رضى اللّه عنه - عاقبة التردد من قبل.. حين لم ينهض مع الجيش الذاهب فكان ما كان من هوان. فليحسم الموقف.. حتى لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين!!

المكر السيء.. مستمر:

باءت محاولة «ملك غسان» بالفشل.. لأنها اصطدمت بإرادة الصحابى الجليل.. فارتدت على أعقابها..

ولكن تبقى الواقعة درسا للمسلمين ليكونوا دائما على وعى كامل بما يدبر لهم فى الخفاء.. حتى لا يحصروا همهم فى الإعداد العسكرى فقط.. بل لابد من جهاز متخصص يكشف اتجاهات الأعداء. حتى لا نؤخذ على غرة فما يزال مكرهم مستمرا للإيقاع بين رفاق السلاح.

ذكر ابن الأثير فى النهاية مادة «أرس»:

(إن عاهل الروم انتهز فرصة الخلاف بين على ومعاوية فكتب

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

إلى معاوية يعرض عليه مساعدته ضد خصمه.. فتنبه معاوية إلى هذا الخبث. إذ كيف يعرض عليه عدوه هذه المساعدة. وهو يحتل أرضا كانت تحت سلطانه؟

إنها ليست حبا منه لمعاوية ولكنها إذكاء لنار الفتنة لتأكل الأخضر واليابس وتضعف الطرفين ليسهل عليه استرداد ما فُقِد منه.

ورد عليه معاوية بما أفحمه.. وحسم القضية.. فى كتاب جاء فيه:

اعلم أنى وعليا أخوان. تنافسا فضلا. وتسابقا خيرا. فإن لم تكف عن مقالتك لأجردن عليك جيشا يكون أوله عندى بالشام وآخره عندك بالعراق حتى أُورثه الأرض التى تحت قدميك).

الأعداء يفهمون الدرس:

فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى. كانت جيوش عبدالملك بن مروان تقاتل جيوش مصعب بن الزبير بن العوام فى العراق. فذهب قادة الروم إلى إمبراطورهم وقالوا له: لقد جاءت إليك الفرصة لتهزم العرب، فإنهم يقاتلون بعضهم بعضا. ونرى أن نهجم عليهم فى بلادهم. ولكن «إمبراطور» الروم لم يكن يرى رأى قادته؛ فطلب إحضار ذئبين فى قفص أمامه. ثم أثار أحدهما على الآخر. فاقتتلا قتالا شديدا.

ثم طلب إحضار كلب أدخله فى قفص الذئبين. فلما رأى الذئبان الكلب تركا ما كان يشغلهما من قتال أحدهما الآخر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأنقضا معا على الكلب حتى قتلاه.

عندئذ قال ملك الروم لرجاله: هذا مثلنا. ومثلهم فعرفوا صحة رأيه. وتراجعوا عن رأيهم.

امتحان الإرادة:

(.. حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين. إذا برسول رسول اللّه ﷺ يأتينى فقال: إن رسول اللّه ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا.. بل اعتزلها ولا تقربها. وأرسل إلى صاحبيه مثل ذلك. فقلت لامرأتى: الحقى بأهلك فتكونى عندهم حتى يقضى اللّه فى هذا الأمر. قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقالت: يا رسول اللّه: إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم. فهل تكره أن أخدمه؟

قال: «لا.. ولكن لا يقربْك» قالت: إنه واللّه ما به حركة إلى شىء! واللّه ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان حتى يومه هذا.

فقال لى - أى لكعب - بعض أهلى: لو استأذنت رسول اللّه ﷺ فى امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه

فقلت: واللّه لا أستأذن فيها رسول اللّه ﷺ.. وما يدرينى ما يقول رسول اللّه ﷺ. إذا استأذنته فيها.. وأنا رجل شاب. فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كَملت لنا خمسون ليلة. من حين نهى رسول اللّه ﷺ عن كلامنا).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولا شك أن رسول اللّه ﷺ قد علم بمحاولة ملك غسان استقطاب كعب - رضى اللّه عنه.

ولا شُك أيضا أن الأمل قد ازداد فى قلب كعب.. وها هى ذى لحظة العفو قد حان ميقاتها.. بعد هذا النجاح فى الإفلات من محاولة القوى الأجنبية التى تحاول ضرب المجتمع الإسلامى بواحد من خلصائه.. وفى أحرج لحظات حياته.. ولكن الذى حدث هو ما لم يتوقعه أحد، ففى الوقت الذى لم تبق بينه وبين العفو إلا خطوة واحدة.. يأتيه الأمر النبوى باعتزال زوجته.. وحرمانه من آخر معقل فى حياته.. ولم يكن الأمر محل مناقشة.. أو مساومة.. وإنما كان الالتزام الصارم من قِبَل الأزواج الذين نفذوا الأمر فوريا.. وحرفيا.

ومن قبلُ كانت الزوجات على مستوى الموقف: فبينما تذهب زوجة كعب إلى بيت أبيها.. تستفسر زوجة هلال مجرد استفسار عن حدود الأمر. وإمكانِ أن تبقى فى البيت لتخدمه.. فى صراحة مجللة بالعفة.

ويوافق ﷺ شريطة ألا يقربها زوجها.. مؤكدا بهذا الموافقة إنسانية الإسلام حتى فى أشد المواقف صرامة.

ولقد كان للزوج فى رفيقة حياته نعم الجليس والأنيس.. لكنه عليه السلام يأمره باعتزال زوجته ليذوق معنى الغربة تماما..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهو امتحان الإرادة التى ترى الحلال بين يديها.. ثم لا تقربه. فى حراسة ضمير صاح لا يغدر ولا يخون. ولا شك أن الرجال الذين يلتزمون بالطاعة إلى هذا الحد لقادرون على الوفاء بكل التزامهم فى كل الظروف.. التى لا يمكن أن تبلغ يوما ما بلغته اليوم من غربة ووحشة.

يفرحون بفضل الله تعالى:

يقول كعب - رضى اللّه عنه:

(.. فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر اللّه، قد ضاقت علىّ نفسى وضاقت علىّ الأرض بما رحبت. سمعت صَوْتا صارِخا أوفى على جبل «سلَع» بأعلى صوته:

يا كعب بن مالك: أبشر. قال: فخررت ساجدا. وعرفت أن قد جاء فرج وآذن رسول اللّه ﷺ بتوبة اللّه علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا..

فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى فنزعت ثوبَىَّ فكسوته إياهما ببشراه واللّه ما أملك غيرهما يومئذ.

واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول اللّه ﷺ فيتلقانى الناس فوجا فوجا يهنئوننى بالتوبة يقولون:

لِتَهنِك توبة اللّه عليك: قال كعب: حتى دخلت المسجد. فإذا رسول اللّه ﷺ جالس وحوله الناس فقام إلىّ طلحة بن عبيد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللّه يهرول حتى صافحنى وهنأنى. واللّه ما قام إلىَّ رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة).

وهكذا يأتى الفرج فى لحظة بلغ الضيق عندها مداه.. بمعنى أنه فى الوقت الذى ينخلع فيه المسلم من كل أسباب الدنيا. وتعجز الوسائل المادية عن إنقاذه.. ويتمكن معنى العبودية من نفسه.. يأتيه من اللّه فرج قريب .

وتأمل كيف تحول الموقف إلى مهرجان شمل الجميع؟! فكعب - رضى اللّه عنه - فى فورة الانفعال يخلع ثوبيه جائزة لمن بشره.. وكيف سعد الصحابة رضوان اللّه عليهم بعودة الغائب إلى إخوة يحبهم ويحبونه.. وكيف كانت لطلحة ميزته الخاصة بما أظهر من سرور.. طار به إلى كعب قبل أن ينتهى إلى المجلس.. فحفظ الصديق لصديقه جميلا لا ينساه.

ويبقى للمجتمع كله تقديره.. لأنه قاطعه حين قاطع.. وعاد إليه حين عاد. التزاما بأمر رسول اللّه ﷺ .

وإذا كان المجتمع قد غضب منه يوما فها هو ذا يهرع إليه فرحا مسرورا بعودة الفارس إلى مكانه فى الصف المؤمن..

إنها إذن المقاطعه التى هى فى نفس الوقت وسيلة من وسائل التربية الإيمانية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال كعب (فلما سلمت على رسول اللّه ﷺ قال رسول اللّه ﷺ ووجهه يبرق من السرور:

«أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قال: قلت: أمن عندك يا رسول اللّه أم من عند اللّه؟

قال: «لا.. بل من عند اللّه».

وكان رسول اللّه ﷺ إذا سُر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه.).

وإذا كان بعض القواد محكوما بغريزة الانتقام.. يشفى صدره ألا يتوب الجندى ليشبع نهمته إلى العذاب الذى يُسعد به نفسه المتعطشة إلى الدماء وأذنه المبتهجة بآهات المعذبين..

إذا كان بعض القواد كذلك.. فإن محمداً صَلى اللّه عليه وسلم يعلّم هؤلاء جميعا كيف يكون قلب القائد الأعلى مستودع آلام الجنود وآمالهم .

وكيف يشقى بأخطائهم التى كان يود أنها لم تكن..

فإذا تابوا.. وانقشعت الغمة. كانت فرحته أكبر من فرحة المذنب نفسه..

وها هو ذا محمد ﷺ يبرق وجهه من السرور.. كأنه قطعة من القمر..

ولقد غضب رسول اللّه ﷺ قبل ذلك على كعب ورفاقه.. بل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأمر باعتزالهم..

وهو نفسه اليوم الذى يعيش واحدا من أسعد أيامه.. ويستقبل التائب العائد بقلب يسع الناس جميعا.. مؤكدا أنه يغضب حين يغضب.. ويفرح حين يفرح.. لمصلحة الدعوة.. لا خضوعا لهواه.

من ملامح التوبة النصوح:

(... فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول اللّه إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى اللّه وإلى رسوله. قال رسول اللّه ﷺ « أمسك عليك بعض مالك. فهو خير لك» قلت: فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر).

لقد أراد كعب - رضى اللّه تعالى عنه - أن ينتقم لنفسه من الدنيا التى غرته فأخرته عن موقعه فى مقدمة الصفوف فقرر التصدق بكل ما يملك.. تأديبا لنفسه من جهة وتطهيرا للطريق من كل شائبة تعوق انطلاقه..

وليكن هذا الخطأ آخر الأخطاء فكان (نبراسا يهتدى به الخطاؤون الذين قد تغلبهم نوازعهم الغَريزية فتقعد بهم دون مكانهم من المجتمع المسلم.

ولكن الدوافع الإيمانية تُنهضهم وتتسامى بهم ليستعيدوا ما كان لهم من مكانة مرموقه. لاعتصامهم بالصبر على المحن التى جَرَت بها تصاريف الأقدار فى مجارى الغيب. لا يلحقهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضعف معجز. ولكنهم يتخذون من أخطائهم منائر هداية تنير لهم طريق الأوبة إلى اللّه مستسلمين لأحكامه وأقداره.

فإذا جاءتهم بشائر الإنعام بالرضا والقبول لم تبطّرهم. بل تفتح لهم منافذ الشكر، وتُنهضهم إلى صالح العمل)(١).

وها هو ذا كعب - رضى اللّه عنه - لا يجعل من قبول توبته.. عتابا مرا لمن قسوا عليه فى العقاب.. ولا غرورا بما صار إليه ينسيه الدرس القاسى.. وإنما كان مثلا شرودا فى الصبر.. وهضم النفس.. وصرف الهمة إلى الأمام.. فى محاولة لاستعادة موقفه القيادى.. معبرا عن هذا كله بتبرعه بماله كله اعترافا منه بالتقصير.. وتَوَدُّدا إلى مجتمع بكى عليه يوما.. وجمد مشاعره نحوه التزاما بأمر اللّه فلما جاء نصر الله والفتح.. كان ذلك الموقف العظيم واحدا من خصائص المجتمع المسلم الذى يخاصم ويصالح للّه ورسوله.

ولكن الرسول صَلى اللّه عليه وسلم وهو بأمته رءوف رحيم - لم يسترسل مع كعب فى أمانيه.. ولم يركب معه موج الحماس الهادر الصاخب..

فلحظات الحماس لا تحسم المواقف.. ولكنه أمره أن يُبقى لولده شيئا..

ولعل مرافق الدولة وتسليح الجيش كانت بحاجة إلى مال

---

(١) محمد رسول اللّه ﷺ ص٤٦٢. محمد الصادق عرجون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كعب.. لكن ذلك على أهميته لم يحمل القائد على التنكر لمستقبل أسرة لا ينبغى أن تدفع هى ثمن خطأ عائلها. والذى تجاوز اللّه عنه.. فليتصدق ببعض ماله.. وليُبق لأهله ما يكفيهم.. ويكفى عودة الفارس إلى صهوة جواده يعيش من التوبة فى نهار موصول الشروق. حاملا سيفه خيرا وبركة على أمة محمد ﷺ .. وهكذا الإسلام: يستنقذ اليائس من براثن التمزق.. ثم يعينه ليتجاوز المحنه بسلام.

عندما يصبح الصدق ملكة:

(.. فقلت: يا رسول اللّه: إن اللّه إنما نجانى بالصدق. وإن من توبتى ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت.

فواللّه ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه اللّه فى صدق الحديث - منذ ذكرت ذلك لرسول اللّه ﷺ أحسن مما أبلانى، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول اللّه ﷺ إلى يومى هذا كذبا. وإنى لأرجو أن يحفظنى اللّه - تعالى - فيما بقيت).

ورب ضارة نافعة:

لقد أثبتت التجربة الإنسانية أن الصدق منجاة وأن الكذب مهواة...

وإذا نجا المنافقون من العقاب بالكذب والتمويه.. فقد اختار كعب ذلك المركب الصعب: الصدق. فوصل به إلى بر الأمان.. لقد صابر على مغارم الصدق فكان الجزاء ذلك التوفيق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإلهى. والذى صار به كعب بين الناس صدّيقا.

إن الله مع الصادقين:

(.. وأنزل اللّه على رسوله ﷺ.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1].

فواللّه ما أنعم اللّه علىّ من نعمة قط - بعد أن هدانى للإسلام - أعظم فى نفسى من صدقى لرسول اللّه ﷺ أن لا أكون كذبتُه فأهلك كما هلك الذين كذبوا. فإن اللّه قال للذين

---

(١) التوبة (١١٧: ١١٩)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قالَ لأحد.. فقال تبارك وتعالى:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(١).

ونزول الآيات الكريمة تتويجا لهذا الموقف تؤكد مَعيَّة اللّه - تعالى - للصادقين.. الذين أخطأوا يوما.. ثم عادوا بالتوبة أطهر مما كانوا...

واستحقوا بهذه العودة رضوان اللّه.. الذى أنزل الآيات الخالدات على مر الزمان. تعلى قدرهم. وتنشر ذكرهم..

على قدر أهل العزم:

(قال كعب: وكنا تخلفنا نحن الثلاثة عن أمر رسول اللّه أولئك الذين قبل منهم رسول اللّه ﷺ حين حلفوا له. فبايعهم واستغفر لهم. وأرجأ رسول اللّه ﷺ أمرنا حتى قضى اللّه فيه. فبذلك قال اللّه:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾(٢).

---

(١) التوبة (٩٥، ٩٦) (٢) التوبة (١١٨)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وليس الذى ذكر الله مما خُلِّفْنا عن الغزو. إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عن حلف له واعتذار إليه. فقبل منه).

لقد كان لهؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا ماض مشرف فى خدمة الدعوة.

وكان لهم وزنهم بين صفوف الأمة.. ولهذا كان حسابهم عسيرا.. أما غيرهم.. فلم يلاقوا منه ﷺ عتابا.. لخفة وزنهم وقصور باعهم..

من أجل ذلك أرجأهم حتى يحكم الله فيهم - فقد كان فضل الله عليهم.. وعليه عظيما.

سؤال:

لم كان ﷺ سهلا مع المنافقين. متشددا مع المؤمنين؟

يقول ابن القيم(١): وهكذا يفعل الرب - سبحانه - بعباده فى عقوبات جرائمهم: فيؤدب عبده المؤمن الذى يحبه - وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة. فلا يزال مستيقظا حذرا... وأما من سقط من عين الله. وهان عليه. فإنه يخلى بينه وبين معاصيه.. وكلما أحدث ذنبا، أحدث له نعمة..

وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾(٢).

---

(١) زاد المعاد ج٣/٢٠.

(٢) الأنعام (٤٤)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم أعمتهم النعمة عن رؤية الحق بهذا الاستدراج..

القائد الإنسان:

وهكذا تبدو سمات القائد الإنسان فى معمعان الخطر:

إنه أقربهم إلى العدو إذا احمرت الحدق.. ولكنه فى نفس الوقت يحمل قلب إنسان:

١- أشد تبسطا وتلطفا بجنوده.. لأنه ميدان قتال.. ربما احتاج إلى اللين أحيانا تهدئة للأعصاب المشدودة إلى الخطر.

٢- يجد الجندى الخجول فرصته للاقتراب منه.. حيث العدد قليل.

٣- وهو القدوة فى سعة الصدر ليفهم المخطئ ويعود إليه صوابه.

٤- فى أعسر المواقف خطرا يكون أثبتهم جنانا...

٥- لا تهمه نفسه.. ولكن همه كان:

أ- أصحابه.

ب- ومصير المعركة.

٦- حريص على الجندى.. ولو كان واحدا.. فقد يميل به ميزان المعركة..

٧- لا يقطع الخيط أبدا مهما كان حجم الخطأ.. إيمانا منه بكرامة الإنسان الذى يظل موفور الحرية..

٨- يدير حياته على قانون: «لأن يهدى اللّه بك رجلا خير لك من حمر النعم».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من ثمار هذه العظمة:

وبهذه الخصائص العالية حقق محمد صلى الله عليه وسلم ما لم يحققه أحد قبله.. أو بعده.. على حد قول بعض الباحثين:

(بعث محمد ﷺ فى مجتمع كان الذئب الغشوم فيه راعيا. والخصم العنيد فيه قاضيا.

مجتمع.. لا يعرف إلا المنكر. ولا ينكر إلا المعروف!

كان الفساد فيه ضاربا أطنابه.. فحوله من عبادة الحجر إلى قيادة البشر. ومن شرب الخمر مرات فى اليوم.. إلى محافظ على الصلوات الخمس..

من مجتمع تنشب فيه الحرب عشرات السنين لأتفه الأسباب.. إلى مجتمع يُؤْتَى أحدهم بالماء وهو يحتضر.. فيؤثر زميله..

من مجتمع يقطع صلة الجوار.. إلى جار يخاف على جاره من ريح القدر حتى لا يؤذيه.. ولا يستطيل عليه فى البنان).

الإيمان يعلن عن نفسه:

فى غزوة «تبوك» كان للنفاق - كما قيل - حضور مكثف..

ولقد كان للإيمان أيضا حضوره الأقوى بحكمة القائد وإنسانيته.. وطاعة الجندى واستجابته..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإذا كانت الأزمات الخانقة - خاصة العسكرية منها - مدعاة إلى التسيب.. البالغ أحيانا حد التمزق. فقد كانت غزوة العسرة بوتقة برز من خلالها المعدن الإسلامى أصيلا.

ولقد كان ذلك جانبا من حكمته تعالى فى تربية الأمة بالأحداث الجسام ليَصْلب عودها.. فتُثبتَ وجودها أمام أعداء يكيدون لها كيدا.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾(١)

(١) المزمل (١٩)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد تبوك

روى الطبرانى وأبو نعيم من طرق صحيحة عن خزيمة بن أوس قال: هاجرت إلى النبى ﷺ فقدمت عليه عند مصرفه من تبوك فأسلمت فسمعته يقول: «هذه الحيرة قد رفعت إلىّ وإنكم ستفتحونها وهذه الشيماء بنت نفيل الأزدية على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود.

فقلت يا رسول اللّه إن نحن دخلنا الحيرة فوجدناها على هذه الصفة فهى لى قال ﷺ: «هى لك».

فأقبلنا مع خالد بن الوليد نريد الحيرة فلما دخلناها كان أول من تلقانا الشيماء بنت نفيل كما قال رسول اللّه ﷺ على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود فتعلقت بها وقلت هذه وهبها لى رسول اللّه ﷺ فطلب منى خالد عليها البينة فأتيته بها فسلمها لى ونزل إلينا أخوها عبدالمسيح فقال لى: أتبيعنيها؟ فقلت: نعم فقال: احتكم ما شئت فقلت واللّه لا أنقصها عن ألف درهم فدفع لى ألف درهم فقيل: لو قلت مائة ألف درهم لدفعها إليك فقلت: لا أحسب مالا أكثر من ألف درهم.

قال الطبرانى وبلغنى أن الشاهدين كانا محمد بن مسلمة وعبد اللّه بن عمر - رضى اللّه تعالى عنهما.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جنازة مسلم مسكين:

مات عبداللّه ذو البجادين فى «تبوك».

وكان من قبل ينازع إلى الإسلام - يرغب فيه - فيمنعه قومه. بل ويضيقون عليه. حتى تركوه فى «بجاد» - وهو كساء غليظ - ليس عليه غيره. فهرب منهم إلى رسول اللّه صَلَى اللّه عليه وسلم. فلما كان قريبا منه. شق بجاده اثنين: فأتزر بواحد. واشتمل بالآخر. ثم أتى رسول اللّه صَلَى اللّه عليه وسلم . فقيل له «ذو البجادين».

ولما مات فى تبوك. شيعه رسول اللّه صَلَى اللّه عليه وسلم. وأبو بكر وعمر. فى ظلام الليل.. وفى يد أحدهم مشعل يستضيئون فى ضوئه. وقد حفروا له. ونزل رسول اللّه ﷺ فى حفرته. وأبو بكر وعمر يدليانه إليه. وهو يقول:

«أدنيا إلىّ أخاكما». فدلياه إليه.

فلما هيأه لشقه قال: «اللهم إنى أمسيت راضيا عنه. فارض عنه».

قال عبداللّه بن مسعود: يا ليتنى كنت صاحب الحفرة (١).

إنه شاب، وحديث عهد بالإسلام.. لكنه صابر أسرته متحملا عنتها ثم فر هاربا إلى مستقبل مجهول..

---

(١) ابن هشام:- ٥٢٧ - ٥٢٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولقد صار بالإيمان أخا لأبى بكر وعمر على ما لهما دونه من قدم صدق فى خدمة الإسلام.

ثم يدفنه ﷺ وبيده الشريفة.

وأكبر من ذلك أنه دعا له دعوة حملت رجلا كابن مسعود له فى الجهاد ماض عريق.. حملته على تمنى أن يكونه.. إنها القيم الأصيلة.. فى ضوء الإسلام..

وفى طليعتها تلك المساواة التى رفعت شابا حديث عهد بالإسلام أن يتربع على القمة.. مع الصاحبين العظيمين.

ولكنها المساواة المرنة.. الرفيقة.. كما قيل بحق:

إن طبيعة الأخوة والمساواة لا تنفى أن من الأخوة من هو: أعقل.. وأكبر.. وأقوى. فللكبير حقه فى الاحترام.. وللصغير حقه فى الرحمة..

وهكذا يلتقى الجميع فى أحضان الأخوة الجامعة.. فى ظل مجتمع حر.. فيه ما فى الحرية من انطلاق.. ولكن من غير جور ولا شطط..

وفيه ما فى المساواة من ضبط وعدل.. ولكن فى غير كبت ولا حرمان.. ولا حجر على أحد فى الصعود - بعمله - ليأخذ مكانه.. فى القمة.. التى تسع الجميع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفهرس

الموضـــــوع	الصفحـة
تمهيد	٣
أسباب الغزوه	٤
الكنيسة تبارك الغزوة	٤
هرقل يستعد	٥
الإعلام المعادى يمهد للغزو العسكرى	٦
دور اليهود	٦
المنافقون يشعلون النار	٨
ملامح الإعلام المنافق	٨
حرب التخذيل	٩
التشكيك فى ثقة القائد	٩
وقفة تأمل	١٠
التشكيك فى الرسالة	١١
لعبة التمويه	١٢
استغلال الشعارات الدينيه	١٣
أنباء الاستعداد تبلغ المؤمنين	١٣
الموقف على الجبهة الإسلامية	١٤
من ملامح العسرة بأقلام الكاتبين	١٥
النفير العام	١٨
التصريح بجهة الغزو	١٩
الرسول يحرض المؤمنين	١٩
تنافس الصحابة	٢٠
من ثمرات هذه التضحية	٢١
تنافس الفقراء	٢٢
عمر يصف الموقف	٢٣
البكاؤون	٢٣
الذين انتصروا على أنفسهم	٢٨
أبوخيثمة	٢٩
الثلاثة الذين خلفوا	٣١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضـــــوع	الصفحـة
دروس لأولى الألباب	٤٠
النقد الذاتى	٤١
صعوبة الموقف	٤٢
رياح الندم تهب	٤٥
القائد الأعلى يتفقد جنده	٤٦
بين الغيبة والنقد	٤٨
اللحظة الحرجة	٤٩
الحساب اليسير	٤٩
الرجوع إلى الحق	٥٠
قلوب المؤمنين مع المذنبين	٥١
من سمات المجتمع الإسلامى	٥٣
المقاطعة	٥٣
خط الدفاع الأخير	٥٦
الصائدون فى الماء العكر	٥٨
المكر السئ مستمر	٦٠
الأعداء يفهمون الدرس	٦١
امتحان الإرادة	٦٢
يفرحون بفضل الله تعالى	٦٤
القلب الكبير	٦٦
من ملامح التوبة النصوح	٦٧
عندما يصبح الصدق ملكة	٦٩
ورب ضارة نافعة	٦٩
إن الله مع الصادقين	٧٠
على قدر أهل العزم	٧١
القائد الانسان	٧٣
من ثمار هذه العظمة	٧٤
الإيمان يعلن عن نفسه	٧٤
بعد تبوك	٧٦
جنازة مسلم مسكين	٧٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

AL AZHAR

المتن ٧٠ جم مستورد

الغلاف ١٥٠ جم كوشيه

شركة الإعلانات الشرقية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner